17 ème Année No. 819

Lundi — 14 — 3 — 1949

# الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٨ — ١٤ مارس سنة ١٩٤٩ » السنة السابعة عشرة

## هل الشقاق طبع فى العرب ؟

جواب عن سؤال

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

وجهت هذا السؤال مفصلا إلى صديقي الأستاذ الكبير ساطع الحصري بك المستشار الفني لجامعة الدول العربية . ولكن المقال لم يعجب الرقيب فلم يأذن بنشره . ولما اطلع عليه الأستاذ أبو خلدون أجاب عنه بهذا البحث الذي تقرأه . وإني لأرجو بعد أن ينشر أن أعلق عليه بما يتفق مع رغبة الرقيب وواجب الحق وسياسة الرسالة .
« الزيات »

صديقي الأستاذ ...

لقد اطلعت على السؤال الذي وجهتموه إلى ، في مقالكم المنون « هل الشقاق طبع في العرب ؟ » .

فقد أشرتم في المقال المذكور إلى حوادث الشقاق والتنافس والتخاصم التي توالت في تاريخ العرب ؛ واستعرضتم الأحزاب السياسية والفرق الدينية التي ظاهرت بينهم ؛ ثم ذكرتم رأي ابن خلدون في هذا الصدد . وفي الآخر تساءلتم : « هل كتب الله على العرب أن يعيشوا أبداً بطبيعة البادية ونفسية الثابة وعقلية القبيلة ؟ »

فوجب علي أن ألبي طلبكم ، فأكتب إليكم ما أعتقده في هذه القضية الهامة . غير أني رأيت من الضروري أن أقف أولا أمام « المقدمات » التي صدرتم بها هذا السؤال ، قبل أن أحاول الإجابة عنه إجابة مباشرة .

فاسمحوا لي أن أسألكم بدوري : هل تظنون أن الاختلافات التي ذكرتموها كانت من خصائص الأمة العربية وحدها ؟

أنا لا أشك في أن جوابكم عن هذا السؤال سيكون بالنفي ؛ لأنكم تعرفون جيداً — كما يعرف ذلك كل من يستعرض التاريخ العام — أن تواريخ الأمم الأخرى لم تخل من أمثال تلك الاختلافات .

فيترتب على ذلك إذن أن أنقل البحث إلى كنه هذه الاختلافات وشدتها ، فأسألكم : هل تعتقدون أن الاختلافات السياسية والدينية التي حدثت في تاريخ العرب كانت أكثر وأشد وأعنف من التي تجلت في تواريخ الأمم الأخرى ؟

أنا أعرف أن الآراء الشائعة الآن لا تدع مجالا للتفكير ملياً في هذا السؤال ؛ لأنها تحمل الأذهان على الرد عليه فوراً بالإيجاب .

وأعترف بأني أنا أيضاً كنت — مدة من الزمن — من المتأثرين بهذه الآراء الشائعة ، ومن المسلمين بأن تاريخ العرب يشذ في هذه القضايا عن تواريخ الأمم الأخرى شذوذاً كبيراً . غير أني بدأت أشك في صحة هذه الآراء الشائعة عندما أخذت أتعمق في دراسة التاريخ العام ؛ وازددت شكا فيها كلما تغلغلت في هذه الدراسة ؛ إلى أن أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً بأنها لا تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة أبداً ؛ لأنها لا تقوم على مقارنات شاملة ، بل تستند إلى استقراء ناقص جداً .

إننا ننفعل ، ونتألم ، ونتغضب .. عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب .. ولا سيما عندما نتتبع نتائج هذه

الرومانية لم تعش سالمة من الاختلافات ، بل إنها عاشت بالرغم من الاختلافات ، وأما أخلاف الرومان القدماء ، فلا ننس أنهم عاشوا متفرقين متخالفين مدة لا تقل عن خمسة عشر قرناً .

وإذا تركنا السلطنات القديمة جانباً ، وانتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا ، وتتبعنا أحوالها الماضية — طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة — وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفاً .

ولنأخذ فرنسا مثلا ؛ فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة ، والتماسك القوى المتين ، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد ، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب .

أنا لا أود أن أطيل الحديث في هذا الموضوع ، ولذلك اكتفى بنقل كلمة كتبها مؤرخ فرنسا الشهير « أرنست لافيس » لتلخيص تلك الأحوال ، قال المؤرخ :

« لقد مضى عهد من التاريخ كانت فيه فرنسا شبيهة بمقدونيا الحالية منقسمة إلى أجزاء كثيرة ، متخالفة ، متنابذة ، متنافسة ، متخاصمة . وقد وجب أن تسيل الدماء مدراراً حتى تلتحم هذه الأقسام المختلفة ، فتصل فرنسا إلى وحدتها الحالية ... » .

هذه كانت أحوال فرنسا التي سبقت جميع الدول الأوربية في طريق الاتحاد . وأما إذا أنعمنا النظر في تواريخ الدول الغربية الأخرى ، فنجد فيها أيضاً أحوالا مماثلة لذلك تجلت بمقياس أوسع ، وبشدة أعظم ، واستمرت مدة أطول .

لا بد من أن نتذكر — في هذا الصدد — أن ألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي ، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاماً فقط !

إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة ، وهذه الجهود قد اجتازت مراحل عديدة أطوارتمثل آلية

ولهذا كله أستطيع أن أقول بكل تأكيد : إننا كلما توسعنا وتعمقنا في دراسة تاريخ الدول الأوربية ازددنا يقيناً بأن مسالم الاختلاف والانقسام فيها لم تكن قط أقل من التي تجلت في تاريخ العرب بوجه عام .

إني أقول هذا بكل تأكيد ، مع علمي بأني أخالف بذلك آراء الكثرة الساحقة من الكتاب والباحثين .

وقد فكرت ملياً في الأسباب والعوامل التي حملت الرأي العام على التباعد عن طريق الصواب في هذه القضية الهامة ، وأعتقد أنني وصلت إلى معرفتها بكل وضوح :

إن مراكز رؤيتنا لتاريخ العرب تختلف — بوجه عام — عن مراكز رؤيتنا لتواريخ الأمم الأخرى .

فنحن ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى من بعد نظرة إجمالية فندرك خطوطها الأساسية العامة دون أن نتيه في تفاصيلها الفرعية. ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب نظرة تفصيلية فنطلع على كثير من تفاصيله دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية .

وأستطيع أن أقول : إن موقفنا تجاه التاريخ العام موقف رجل يتفرج على الجبل من السهل البعيد .

وأما موقفنا تجاه تاريخ العرب ، فهو موقف رجل يسير في قلب الجبل ويتنقل في وهاده .

ومن المعلوم أن الجبال تتألف عادة من وهاد ووديان ، ومرتفعات ومنخفضات ، وهضاب ومنحدرات ، فلا تبدو عالية شاهقة ، إلا لمن ينظر إليها من بعيد ، ويدرك شكلها العام دون أن يتيه بين خطوطها الفرعية المعقدة ...

إن تواريخ الدول الأوربية تبدو لنا جبالا مرتفعة شاهقة ، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الأوربيين ، ومن الخارج ومن البعد ، فلنغير موقفنا منها ونظراتنا إليها ، وذلك بالتنقل فيها ، نرى عندئذ أنها مؤلفة من وهاد ووديان بالرغم من منظرها الخارجي العام .

وأما تواريخ الدول العربية ، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة ، لأننا ننظر إليها بنظر الأخباريين القدماء ، ومن داخلها ؛ فلنغير موقفنا منها ، ولننظر إليها من بعد — نظرة تسمو على النزعات — فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شاهقة بالرغم مما فيها من وهاد ووديان .

يجب علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا على الدوام ، وأن نسعى لتوحيد نظراتنا إلى صحائف التاريخ القوى والتاريخ العام ، ولنعدل عن استعمال نظارات مكبرة للعيوب في الأولى ، ومصغرة للعيوب في الثانية ، كما اعتدنا ذلك إلى الآن .

وعندما نعمل ذلك نفهم حق الفهم أن الأحكام الشائعة بيننا على تاريخ العرب ، إنما هي وليدة نظرات خاطئة ، ومقارنات قاصرة ، ولهذا السبب كانت في حاجة شديدة إلى التصحيح والتقويم بوجه عام

( البقية في العدد القادم ) أبو فهر محمود شاكر المحامي